والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية ! .

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شىء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذريته . . . . » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية نوح ، من أب أَمْ من أُمّ ؟ .

قال له : من أُمّ . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى شىء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذى خلق ، وهو الذى يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيِّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أى شىء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل فى الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أى واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنّه قد يكون مرادًا غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كونياً ، ومراداً شرعاً . وما دام الشىء فى ملك الله فهو مراد لله ، والمراد الشرعى هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كونى ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تعطى ابنك جنيهاً ، والجنيه قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف فيه ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشترى « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذى أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ؛ وذلك بأن يعشّقهم فى العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت منى ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين فى التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله و لو أشركوا لحبط عملهم و ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و « الحبط » هو الإبطال للعمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة ؛ أي أنّه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين في الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقي إلى أن تقوم الساعة .

وَمَنْ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ هم أهل المدينة أي الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أي إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير في الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لابد أن يبقيها كحجة على الخلق .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذي يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له ـ سبحانه ـ وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربي الجميع ، وراعي الجميع ، ورزّاق الجميع . وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه

وكيلاً عن الله فى أن يشيع الخير فى خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

و﴿ هدى الله ﴾ هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة ؛ بدليل أنه قال : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن « أولاء » أى المشار إليهم هم المتقدمون ، و « الكاف » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول ﴿ اقتد ﴾ ولا نقول ﴿ اقتده ﴾ ولا تنطق الهاء إلا فى الوقف ويسمونها « هاء السّكت » ، لكن إذا جاءت فى الوصل لا ينطقُ بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذِكْرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنّه واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكلهم مشتركون فى هذه الأصول ، وتميّز كل منهم بخصلة فى الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة فى الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة فى الصبر والتفوق فى الحُكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو فى بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أى أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيوسف وكيونس . وأن يأخذ خصلة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم فى القضية العامة وهى

التوحيد لله . وبذلك يجتمع كل التميز الذى فى جميع الأنبياء فى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلابد أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٩٠ سورة الأنعام »

ولماذا يُطْلَب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذى فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطى وتُمنح عليه أجراً ، فكان ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربّه : قل لهم : إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين مَن يقدم لأى واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة فى جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل ينفعكم فى مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ؛ فلم يرد فى القرآن أن قالاها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر فى قصة إبراهيم وكذلك فى قصة موسى عليهما السلام .لكن جاء ذكر الأجر فى غيرهما ، يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

وقال جل شأنه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

وعندما تستقرىء سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم ، لماذا ؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

وفى موسى عليه السلام نجد أنه قد وجهت وقدمت وسيقت له المنفعة من فرعون الذى قام بتربيته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون « لا أسألك أجراً » ؛ لأن القرآن جاء بقول فرعون :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾

« من الآية ١٨ سورة الشعراء »

وكذلك لم تأت مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له : « لا أسألك أجرا » . وهكذا انطمست مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، وبقيت فيما عداهما ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة ؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضا ويقول : « لا أسألكم أجراً » إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفى :

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾

« من الآية ٢٣ سورة الشورى »

والمودة هى فعل الخير الناشىء عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذى لا ينبع من محبة فى القلب فهو فعل معروف ؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يُحب ومن لا يُحب . ولذلك قال ربنا :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

« من الآية ١٥ سورة لقمان »

المعروف - إذن - هو عمل امتداده خير سطحي . والرسول حين يطلب المودة في القربى فهل هي قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة في قُرباكم ؟ هي القُربىٰ على إطلاقها ، وهي القُربىٰ أيضا للمتكلم وهو الرسول الذى يبلغ عن الله .

وإن صُنِّفت على أنها « إلا المودة في القُربىٰ » أى القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف في قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير في الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن هو إلا ذِكْرى للعالمين » وهى ما تعطينا اجتماع الدوائر ويصير كل واحد مُهْتَماً بأقاربه ويتنازع الناس ويتنافسون في مودة القُربىٰ ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الكلام عن الذين رفضوا وتأبوا عن الإيمان بالله . فيأتى الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القَدْر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1]

والإنسان منا حين يثنى على واحد فهذا دليل أنه قد قيّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهى لا تتناهى ولا يمكن أن تحصىٰ . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمَّل عنا صيغة الثناء عليه : كى لا يوقعنا فى حرج ، فليس لبشر من قُدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثنى عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك ـ ولن يحيط ـ فمن أين له العبارة التى تؤدى هذا الثناء ؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التى تكفى لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وفى كلمة « الحمد لله » وحدها يتساوىٰ الناس جميعاً . ومن رحمته سبحانه أن سوّى بين الناس فى معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتى الحق هنا بالزاوية التى نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا ياربِّ لم يقدروك حق قدرك ؟ وتأتى الإجابة :

﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

أى أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه مَن يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتى الرد من الحق لرسوله رداً عليهم :

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

إذن لابد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسىٰ نُزِّل عليه كتاب لتكون الحُجَّة فى موضعها . وكُفار مكة كانوا غير مؤمنين بأى رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا :

(١) رواه مسلم فى الصلاة وأبو داود فى الصلاة والوتر والنسائى فى قيام الليل والترمذى فى الدعوات وابن ماجة فى الدعاء ومالك فى الموطأ فى مس القرآن ورواه أحمد فى المسند ١/٩٦ ، ١١٨ .

﴿ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾

« من الآية ١٥٧ سورة الأنعام »

ونقول : لو دققت النظر فى السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحُجّة . وفى تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض فى الاسلام ، وكان اسمه « مالك بن الصيف » فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهاد فيهم منقطعا للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقيم الأود لأنه قد جاء فى التوراة : « إن الله يبغض الحبْر السّمين » .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف ـ وهو من أحبار اليهود ـ يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم « إن الله يبغض الحَبْر السّمين » فبهت الرجل ، وقال : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » يعنى ما أنزل الله على بشرٍ من شىء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتى من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » فقال لهم : أغضبنى محمد ، فرددت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبْراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه

قراطيس ، أوجعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يُريدون ، ويخفون منها ما لا يُريدون مثلما فعلوا فى مسألة الرّجم كعقاب للزّنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبيّن الحق ذلك فى آيات متعددة :

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة المائدة »

والذى لم ينسوه كتّموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذى لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هى من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

« من الآية ٧٩ سورة البقرة »

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

فإن كان الكلام فى كُفّار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان فى أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن فعدل لهم ، فكأنهم عُلّموا الحق ، لينسخوا به الباطل الذى غيرّوه وحرفوه ، وقوله الحق: ﴿ قل الله ﴾ أى أن الذى أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتى الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقى بالنسبة لله مُحَال ، لأنه يعلم كل شىء ، وإنما يجىء باستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكارى » أو « الاستفهام التقريرى » وهو يأتى بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو خجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يامحمد :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

و« الخوض » هو الدخول فى الماء الكثير ، الذى لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل فى هوّة ، ثم استعمل واستعير للخوض فى الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتركهم محمد ؟ لا ؛ لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكّرهم ، ثم بعد أن ينفتح الأمر للإسلام ، فالذى يقيم فى جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ؛ لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون وزاى ولام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ؛ فمرة يقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

« سورة القدر »

ومرة يقول عز وجل :